الفصل الرابع

أثر الإيمان بالآخرة في الاستهلاك

سلوك المستهلك، يعد من المحاور الرئيسية في التحليل الاقتصادي، والاقتصاد الاسلامى يتجاوز التحليل السلبي المجرد للظاهرة والوقوف عند حدود رصدها ومحاولة اكتشاف مؤثراتها، إلى البحث في مؤثراتها السلوكية سواء بالسلب أو الإيجاب، وإحداث التأثير النفسي والروحي بما يحقق الأمان الاستهلاكي، فلا يتحول إلى أداة تهدد آثار النمو الاقتصادي نتيجة السرف وعدم الاتزان ، فالفكر الإسلامى ينتقل بعد دراسة الظاهرة إلى ما ينبغى أن تكون عليه مستوياتها.

والاستهلاك الفردي الخاص، يختلف في توجهاته عن السلوك الاستهلاكي تجاه المنافع العامة، وقد أفرد البحث لكل منهما تحليله المستقل.

والإنفاق العام ، الذي تعدت مسئوليته مجرد تغطية النفقات العامة ، إلى محاولة تغطية أعباء اجتماعية والقيام بمحاولة إعادة توزيع الدخل ، لصالح الطبقات الأقل فقرا .. أصبح يشكل أهمية في مستويات الإنفاق العام .

وعلى ذلك فإن هذا الفصل سيتناول بالعرض المباحث التفصيلية التالية :

المبحث الأول : أثر الإيمان بالآخرة على الاستهلاك الخاص .

المبحث الثاني : أثر الإيمان بالآخرة على الاستهلاك العام .

المبحث الثالث : خلاصة آثار الإيمان بالآخرة على الاستهلاك

المبحث الأول

أثر الإيمان بالآخرة في الاستهلاك الخاص

يتناول هذا المبحث الجوانب التالية :

١ ـ ثواب الشكر لنعمة الله ﷻ .

٢ ـ ثواب الاستمتاع بالزينة الحلال .

٣ ـ عقوبة الإسراف والتبذير في الاستهلاك .

٤ ـ عقوبة الترف الاستهلاكي .

وفيما يلي عرض تفصيلي لكل منها :

١ ـ ثواب الشكر لنعمة الله ﷻ :

كفر النعمة من أسوأ مظاهر الكفر ، لأنه قد يقع فيه المسلم دون وعى منه برغم إيمانه، وللشكر أثره الاقتصادي البالغ ، ذلك لأن الله توعد أصحابه بزيادة الموارد

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

[إبراهيم: ٧]

كما أن الشكر ينعكس أثره في الإحساس بالرضى بما قسم الله ﷻ من الرزق ، فلا يكون هناك حقد طبقي أو تطلع استهلاكي مسرف .. غير مرغوب فيه نتيجة محاولة تقليد الطبقات الاغنى .

وقد وعد الله سبحانه وتعالى برفع العذاب عن الشاكرين يوم القيامة بقوله تبارك اسمه:

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

[النساء: ١٤٧]

ومن أرق التعبيرات القرآنية إيناسا في القلب وترويحا للنفس ، ما جاء به النص القرآني من شكر الله ﷻ لعباده ، وذلك على سبيل المشاكلة اللفظية ، التى تعكس مفهوم أن الجزاء من جنس العمل ، فيقول الله ﷻ :

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾

[الإنسان: ١٢-٢٢]

٢ ـ ثواب الاستمتاع بالزينة الحلال :

من عظمة هذا الدين وشموخه ، أنه يتسامى بالإنسان في مظهره، ولا يرضى له التبذل في المظهر على سبيل إظهار الخشونة في العيش، إلا إن كان صاحبه يخشى على نفسه كبرا أو إعجابا بنفسه.

وقد قال الله ﷻ :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

[الأعراف: ٣٢]

ولا مسوغ لبشر ولا حق له في تحريم أمر أحله الله سبحانه وتعالى .

وكان الكفار يطوفون بالبيت عرايا غير آبهين بمظهرهم ، فجاء النص بالحرص على المظهر اللائق والزينة المشروعة في قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف: ٣١].

وجاء التوجيه النبوي المبارك في أكثر من نص إلى ضرورة الاهتمام بالمظهر المشرف والزينة اللائقة .

عن أبي الأحوص عن أبيه أنه أتى النبيَ ﷺ في ثوب دون - رديء حقير - فقال له النبيُّ ﷺ : «ألك مالٌ قال نعمْ منْ كلّ المال قال من أيّ المال قال قد آتاني اللّهُ منْ الإبل والغنم والخيل والرّقيق قال فإذا آتاك الله مالا فلير عليك أثرُ نعْمة الله وكرامته»[1].

وفي حديث آخر :

١) حديث مرفوع متصل رواه النسائي في كتاب الزينة – باب الجلاجل

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ : «ما أَنْعم اللَّهُ على عبْدٍ نعْمةً إلاَّ وهُو يُحبُّ أنْ يرَى أثَرَها عَلَيْه»[1].

وحين استشكل الأمر بالبعض ، فخشي أن يكون المظهر الحسن من مظاهر الكبر، صحح النبي ﷺ لهم الفهم بقوله في الحديث :

عَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ مسْعُود ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لا يدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه مثْقَالُ ذَرَّة منْ كبْر» قَالَ رجُلٌ: إنَّ الرَّجُل يُحبُّ أنْ يكُونَ ثَوْبُهُ حسَنًا ونَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إنَّ اللَّهَ جَميلٌ يُحبُّ الْجَمَالَ الْكبْرُ بَطرُ الْحَقِّ وغَمْطُ النَّاس»[2].

والكافرون وإن شاركوا المؤمنين زينة الدنيا ، فإن الله ﷻ وعد المؤمنين بخصوصيتهم في زينة الآخرة التي يستأثرون بها دون سواهم ، فقال ﷻ :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢]

٣ ـ عقوبة الإسراف والتبذير في الاستهلاك :

التوسط والاعتدال في الإنفاق، جاء به التوجيه الرباني محبذاً ومكرماً صاحبة بشرف الدخول ضمن عباد الرحمن ، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧]

وعلى نقيض ذلك ، جاء التحذير من الإسراف والتبذير الذي يعد تبديداً للموارد الاقتصادية في غير موضعها ، وحرمان المستحقين لنصيبهم العادل منها، وربط النص القرآني مصير المبذرين بمصير الشيطان .. وهذا نذير عقاب وعذاب واقع بهم لا محالة ، كما جاء في قول الحق سبحانه جل شأنه :

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[الإسراء: ٢٦-٢٧].

وقال الله سبحانه وتعالى متوعدا المسرفين بقوله :

---

١) حديث مرفوع متصل رواه أحمد فى مسنده – كتاب بقى مسند المكثرين – باب المسند السابق.

٢) رواه مسلم فى صحيحه – كتاب الإيمان – باب تحريم الكبر وبيانه

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٧]

ومصير الشيطان معلوم ، ومؤاخاته مشاركة له في العذاب .

وقد جاء تعبير الإسراف في قول الله ﷻ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[طه: ١٢٧].

ومقصود الآية متصل بالإسراف في المعاصي بالدرجة الأولى، والاستشهاد بها للدلالة على عقوبة التبذير استند إلى دلالة عموم اللفظ، واعتبار أن سلوك المسرفين عموما لا ينفصل في المعصية بالمال عن بقية المعاصي، ولعل إعطاء الدلالة العامة للإسراف لكل مافية معصية الله ﷻ ، يشكل ردعاً أشد وتخويفاً أكبر من عقوبة الإسراف في التصرفات الاقتصادية.

وقد عدد الرسول ﷺ بعضا من مظاهر الإسراف، محذراً منها، مثل استعمال آنية ذهب أو فضة .. حيث ثبت في الحديث:

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضى الله عنها أَنَّهَا أَخْبَرَتْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي يَشْرَبُ فِي إِنَاءِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ»[1].

ومن بين مظاهر التبذير والإسراف التى ثبت التزهيب منها ، المغالاة في اختيار الثوب الذي يريد صاحبه أن يظهر ويستعلي به على الناس، مثبتا لهم أنه أغنى منهم، وأعلى منزله في الدنيا ، وقد حذر النبي ﷺ من عقاب صاحبه بصورة مريعة ، يتصل بها العذاب من الدنيا إلى يوم القيامة .. فجاء في الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ يَمْشِي فِي بُرْدَيْهِ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2].

وفى حديث آخر ، توعد النبي ﷺ المسرف المختال ، بالحرمان من شرف نظرة الله إليه بالرحمة والعفو يوم القيامة .. فجاء :

---

١) حديث مرفوع متصل رواه ابن ماجة فى سننه – كتاب الأشربة – باب الشرب فى آنيه الفضه.

٢) رواه مسلم فى كتاب اللباس والزينة – باب تحريم التبختر فى المشى مع إعجابه بثيابه

عن ابْن عُمَرَ رضى الله عنهما قالَ: قال رسُولُ اللّه ﷺ : «منْ جرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنْظُرْ اللَّهُ إليْه يوْمَ الْقيامَة»[1].

٤ ـ عقوبة الترف الاستهلاكي :

الترف يتجاوز الإسراف والتبذير إلى المبالغة فى التنعم الاستهلاكي من طعام وشراب وملبس، واستيلاء حب الترف على النفس يؤدى إلى المبالغة في الإنفاق غير الضرورى ، رغبة في الكبر والاستعلاء على الناس.

ومن شأن هذا السلوك أن يرتب سوء العقوبة في الدنيا والآخرة معا، أما يوم القيامة، فإن ذرة واحدة من الكبر في القلب كفيلة بطرد صاحبها من الجنة، وإلقائه في النار، كما جاء في الحديث:

عنْ عَبْد اللّه قالَ: قالَ رَسُولُ اللّه ﷺ : «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كان في قَلْبه مثْقالُ حَبَّة منْ خرْدَل منْ كبْر ولا يدْخُلُ النَّارَ منْ كان في قَلْبه مثْقالُ حَبَّة منْ إيمانٍ» وَفي الْبَاب عنْ أَبي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عبَّاسٍ وغيرهم[2].

وكما جاء في الحديث ، فإن الكبرياء لله وحده ﷻ ، ولا حق ولا مسوغ لبشر من منازعته ذلك ، وإلا كان مصيره إلى النار ، حيث ثبت:

عنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ: هنَّادٌ قال: قال رسُولُ اللّه ﷺ : «قَالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ الْكبْرياءُ ردائي والْعظْمَةُ إزاري فمنْ نَازعَني واحدا منْهما قذفْتُهُ في النَّار»[3].

والمستكبرين بمظاهر الترف وغيره .. عذابهم أشد ما يكون يوم القيامة ، ويصير كبرياؤهم واختيالهم موضعا للازدراء والاحتقار والتبكيت، فيقول سبحانه وتعالى واصفا موقفهم في الآخرة:

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[الدخان: ٤٣-٤٩].

وفى الحديث عن الرسول ﷺ ، قوله :

---

١) رواه البخاري فى صحيحه – كتاب المناقب – باب قول النبى لو كنت متخذا خليلا

٢) حديث مرفوع متصل رواه الترمذى فى كتاب البر والصلة عن رسول الله – باب ما جاء فى الكبر.

٣) حديث مرفوع متصل رواه أبو داود فى سننه – كتاب اللباس – باب ما جاء فى الكبر

عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : «منْ مات وَهُوَ بَرِيءٌ منْ ثلاث الْكبْرِ وَالْغُلُولِ وَالدَّيْنِ دخَلَ الْجَنَّةَ»[1].

وجاء النص القرآني صريحا، في سوء المآل والمصير يوم القيامة للمترفين ، حيث قال الله ﷻ :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٤]

وقال جل شأنه في وصف أصحاب الشمال:

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾[الواقعة: ٤١-٤٥].

وقد جاء في التحذير أيضاً من عقوبة الترف، في حديث الرسول ﷺ .. بقوله :

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلاَنَ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ»[2].

---

١) حديث مرفوع متصل رواه الترمذى فى سننه – كتاب السير عن رسول الله – باب ماجاء فى الغلول

٢) حديث مرفوع متصل رواه الترمذى فى سننه – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله – باب منه